قصة

صاحب الرغيف

تأليــف:

أبي مالك عدنان المقطري

المقدمـــة

إن الحمد لله، نحمده تعالى ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، من يهده الله، فلا مضل له، ومن يضلل، فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله. أما بعد:

فنظرًا لأهمية القصص الحق في التربية الربانية، والثبات على الدين ، ورفع الهمة ، وزيادة الإيمان، كانت مما نزل به القرآن الكريم، وذكر به الرسول العظيم ﷺ، واستعملها من أجل تلك المعاني الجميلة ،والمقاصد الكريمة إذ هي جندي من جنود الرحمن.

قال الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ [يوسف: ٣].

والقصص آية من آيات الله تعالى، قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ﴾ [يوسف: ٧].

ولقد تضمنت قصص القرآن من العبر، والحكم الشيء الكثير، ولذلك قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [يوسف: ١١١].

ومعنى عبرة: أي فكرة ، وتذكرة ، وعظة لأصحاب العقول(١).

وقـــــال عـــــز وجـــــل: ﴿فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٦].

---

(١) تفسير القرطبي :(٥/ ٥٥٠).

وقبلها قال تعالى: ﴿ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ﴾ [الأعراف:١٧٥].

فضرب الله قصة هذا الرجل المنسلخ في القرآن للعبرة والتفكر، وللحذر والتحذير من أن يسير المؤمنون على ما سار عليه، أو يكونوا مثله، وقد كان الله -عز وجل- يسلي نبيه ﷺ ويواسيه، ويثبت قلبه وفؤاده، بإخباره عن الأمم السابقة، وما حدث لها، وما جرى من تكذيب لأنبياء الله ورسله، فكان هذا مما يسري عن النبي ﷺ ويفرج عنه همه ﷺ.

وكذلك كان رسول الله ﷺ يستخدم القصص، وأخبار السابقين في تقوية المؤمنين، وتثبيتهم على الدين، وتسليتهم في مصائبهم رضي الله عنهم.

ففي صحيح البخاري عن خباب بن الأرت رضي الله عنه قال: شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسط بُردة له في ظل الكعبة، فقلنا: ألا تستنصر لنا.. ألا تدعو لنا؟ فقال: «قد كان من قبلكم، يُؤخذ الرجل فيُحفر له في الأرض، فيُجعل فيها، فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه، فيُجعل نصفين، ويُمشط بأمشاط الحديد، ما دون لحمه وعظمه، فما يصده ذلك عن دينه، والله ليُتمن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله، والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون»[1].

---

(١) أخرجه البخاري – كتاب الإكراه – باب من اختار الضرب والقتل والهوان على الكفر.

وهكذا كان رسول الله ﷺ كثيرًا ما يحدث أصحابه عن الأمم السابقة، وعن أخبارها لا سيما بني إسرائيل، وكان هذا أسلوبًا يستعمله النبي ﷺ في تربية أصحابه، وشحذ هممهم.

وعلى هذا سار الصحابة الكرام، والتابعون، والعلماء، والأئمة إلى يومنا هذا.

وبين يديك -أخي القارئ الكريم- قصة رجل من الأمم السابقة، في خبره عظة وعبرة، أضعها بين يديك سائلًا المولى -عز وجل- أن ينفعني بها، وإياك، وأن تكون ذخرًا لي يوم لقاه.

تنبيه: يجب على المسلم أن يتحرى ما ثبت، وصح إسناده، وألا يتجاوز ذلك إلى الأكاذيب، والموضوعات من الأخبار والحكايات، وحذاري أن يكون الداعية ممن قال فيهم النبي ﷺ: «من كذب عليّ متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار»(١).

وفي صحيح مسلم عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من حدث عني بحديث يُرى أنه كذب فهو أحد الكاذبين»(٢).

فكما أن الكذب على رسول الله ﷺ حرام، وطريق إلى النار، فكذلك التحديث بما هو كذب عنه ﷺ من الكبائر والمهلكات،

---

(١) أخرجه البخاري – كتاب الجنائز – باب ما يُكره من النياحة، ومسلم باب في التحذير من الكذب على رسول الله ﷺ.

(٢) أخرجه مسلم – باب وجوب الرواية عن الثقات.

إذ صرح ﷺ أنه أحد الكاذبين، والكذب على رسول الله ليس كالكذب على غيره.

قال ﷺ: «إن كذبًا علي ليس ككذب على أحد، ومن كذب عليّ متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار»(١).

كتبه
الفقير إلى عفو ربه
أبو مالك عدنان بن عبده بن
أحمد بن سعيد بن علي المقطري
في ٢٣ من شوال ١٤٣٠هـ
اليمن – تعز

(١) أخرجه البخاري - كتاب الجنائز - باب ما يكره من النياحة على الميت، ومسلم - باب في التحذير من الكذب على رسول الله ﷺ.

قصة صاحب الرغيف

عن أبي بردة قال: لما حَضَرت أبا موسى الوفاةُ قال: «يا بَنيّ اذكروا صاحب الرغيف، كان رجلٌ يتعبد في صومعة أراه سبعين سنة ، لا ينزل إلا في يوم واحد. قال: فشب ، أو شبه الشيطان في عينه امرأة، فكان معها سبعة أيام أو سبع ليال، ثم كشف عن الرجل غطاؤه، فخرج تائبًا وكان كلما خطا خطوة صلى وسجد.

فآواه الليل إلى دكان عليه اثنا عشر مسكينا، فأدركة العياء، فرمى بنفسه بين رجلين منهم ، وكان ثم راهبُ يبعث إليهم كل ليلة أرغفة فيعطي كل إنسان رغيفًا فجاء صاحب الرغيف، فأعطى كل إنسان رغيفًا ، ومر على ذلك الرجل الذي خرج تائبًا فظن أنه مسكين فأعطاه رغيفًا ،فقال له المتروك: مالك لم تعطني رغيفي؟ فقال: تراني أمسكت عنك؟ سل هل أعطيت أحدًا منكم رغيفين؟ قالوا: لا، فقال: والله لا أعطيك الليلة شيئًا فعمد التائب إلى الرغيف الذي دفعه إليه فدفعه إلى الرجل الذي تُرك.

فأصبح التائب ميتًا، قال: فوزنت السبعون بالسبع ليال، فرجحت الليال، فوزن الرغيف بالسبع الليال فرجح الرغيف، فقال: أبو موسى: يا بني اذكروا صاحب الرغيف».

أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه – باب ما ذكر في سعة رحمة الله تعالى. حديث: ٣٣٥٤٦. وأبو نعيم في حلية الأولياء – حديث: ٩١٦.

وصححه شيخنا العلامة المحدث: أبو إسحاق الحويني –حفظه الله ومتعنا بعلمه– في شريطه: (مدرسة الحياة).

الأثر له حكم الرفع إلى النبي ﷺ

روى أبو موسى رضي الله عنه هذا الأثر ، ولم يعزه إلى النبي ﷺ صراحة بقوله قال رسول الله ﷺ فهو موقوف على الصحابي، ولكن ما دام أن الأثر يتحدث عن أمور من الماضي، فهذا الموقوف له حكم الرفع إلى النبي ﷺ كما قرر ذلك علماء الحديث –رحمهم الله–.

قال الحافظ ابن حجر –رحمه الله– في (نزهة النظر) (ص: ٥٣): «ومثال المرفوع من القول حكمًا لا تصريحًا أن يقول الصحابي الذي لم يأخذ عن الإسرائيليات ما لا مجال للاجتهاد فيه، ولا تعلق ببيان لغة، أو شرح غريب، كالإخبار عن الأمور الماضية من بدء الخلق، وأخبار الأنبياء، أو الآتية كالملاحم والفتن، وأحوال يوم القيامة، وكذا الإخبار عما يحصل بفعله ثواب مخصوص، أوعقاب مخصوص، وإنما كان له حكم المرفوع، لأن إخباره بذلك يقتضي مخبراً له، وما لا مجال للاجتهاد فيه يقتضي موقفًا للقائل به، ولا موقف للصحابة إلا النبي ﷺ أو بعض من يُخبر عن الكتب القديمة، فلهذا وقع الاحتراز عن القسم الثاني، وإذا كان كذلك فله حكم ما لو قال رسول الله ﷺ فهو مرفوع سواء كان مما سمعه منه، أو عنه بواسطة (ا.هـ).

وقد قال الشيخ المحدث أبو الحسن السليماني –حفظه الله– في كتابه (الجواهر السليمانية شرح المنظومة البيقونية) (ص: ١٣١): (ووجه إدخال هذه الصورة في قسم المرفوع حكمًا: أن الصحابة رضي الله عنهم أشد الناس حذرًا من القول على الله بغير علم، وما كان الواحد منهم يذكر أمرًا غيبيًا، ويجزم بأن الله –عز وجل– يقول لمن فعل كذا: كذا وكذا ، أو أنه يكرمه ، أو يعاقبه بكذا، ونحو ذلك دون أن يكون له في ذلك حجة، فمن المستبعد أن يهجم الصحابي على هذا الأمر دون مستند عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لأن هذا الأمر بهذا التفصيل لا يؤخذ من قواعد الشريعة فقط إنما يؤخذ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أو من أخبار أهل الكتاب فلما اشترط العلماء ألا يكون الصحابي ممن يأخذ عن أهل الكتاب، ترجح الأمر الآخر، وهو الأخذ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وانظر نحو ذلك ملخصًا في (النزهة) والله تعالى أعلم».

وممن عُرف بالأخذ عن بني إسرائيل من الصحابة –رضوان الله عليهم– عبدالله بن عمرو بن العاص، وعبد الله بن عباس رضي الله عنهما[1]. وكذلك أبوهريرة، وعبدالله بن عمر رضي الله عنهما.

ولم يُعرف أبو موسى الأشعري رضي الله عنه برواية الإسرائيليات[2]،

(١) راجع (شرح نزهة النظر) للعلامة العثيمين –رحمه الله– ص: ٣٧٠.

(١) وهذا ما وصلت إليه بعد بحث طويل ، فلم أجد من ذكره فيمن يروي الإسرائيليات –والله تعالى أعلم–.

وللأثر شاهد من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ وله شاهد من حديث عبد الله بن مسعود بنحوه، أخرجه ابن أبي شيبة (٩٩٠٦و٣٥٣٥٢)، والبيهقي في (الشعب) (٣٤٨٨) ،وابن مسعود ﷺ لم يعرف أيضًا برواية الإسرائيليات. قال العلامة أحمد شاكر (تحقيق تفسير الطبري) (٨/ ٣٦٣): «وليس هو ممن ينقل عن أهل الكتاب، ولا يقبل الإسرائيليات».

فالشروط إذًا أربعة، الأول: أن يكون قاله صحابي. الثاني: أن يكون الصحابي لم يُعرف بالأخذ عن بني إسرائيل. الثالث: لا مجال للاجتهاد فيه. الرابع: ولا له تعلق ببيان لغة ، ولا شرح غريب. فيكون حديثنا هذا قد استوفى شروط الحديث المرفوع حكمًا إلى النبي ﷺ.

والآن حان -أخي القارئ- لنعيش مع هذه القصة معًا، ونغور في تفاصيلها.

المعنى الإجمالي للقصة

إن من حقوق الإنسان المسلم على أولاده أن يسعى في إصلاحهم، وتوجيههم لما فيه خيرهم، وصلاحهم، ويكون ذلك في حياته، ويتأكد أكثر عند حضور الأجل، ونزول السكرات فيوصيهم، ويذكرهم.

وهذا ما فعله أبو موسى رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عندما حضره الموت، فجعل يذكر أبناءه، ويرشدهم، وكان إرشاده لهم بذكره لخبر صاحب الرغيف.

وهو رجل من الأمم السابقة ممن سلف من بني إسرائيل ، والذين كانت فيهم الأعاجيب كما قال ﷺ: «حدثوا عن بني إسرائيل فإن فيهم الأعاجيب»[1].

وكان من قصة الرجل أنه عابد من العباد ممن كان يعتكف في الصوامع، وكان من عجيب أمرهم فيها أن تكون بعيدة عن مكان الناس وأسواقهم، ولا يصعد الشخص إليها إلا بحبل يتدلى به للنزول، أو الصعود، فإذا صعد أخذ الحبل، وخبئه في صومعته حتى لا يستطيع أحدٌ أن يصعد إليه فيشغله عن عبادة ربه[2] وتفرغه لخالقه -عز وجل-.

ولحاجة الإنسان للزاد الذي لا بد منه كان ينزل العابد في كل أسبوع

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة ـ باب ماجاء في عدم الحرج في الحديث عن بني إسرائيل - حديث : ٢٠٦، وذكره شيخنا المحدث العلامة الحويني -حفظه الله- في بعض أشرطته .

(٢) فائدة ذكرها شيخنا الحويني في شريط: (مدرسة الحياة).

مرة واحدة، خصص له يوما من أيامه السبعة، وهو يوم الأحد كما جاء في رواية أخرى.

واستمر على هذه الحالة سبعين سنة كاملة، تحدوه العبادة، وتشغله الزهادة، متفرغًا لله تعالى، منقطعًا عن الخلق، متقربًا للحق.

إلى أن فاجأته المصيبة التي لم تكن بالحسبان، والمعصية التي توقد على المرء النيران.

فجاء اليوم المحدد لنزوله لحاجته، وقضاء ما يريده من طلباته، وبينما هو في الطريق، ورغم هذه المدة الطويلة، والعمر المديد إلا أن الشيطان لم ينسه، فهو لبني آدم بالمرصاد لإغوائهم وإضلالهم كما أقسم على ذلك: (قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ . إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ).

وكان حبله الذي وصل به إلى العابد، وسهمه الذي نفذ به إلى الزاهد هي المرأة (فتنة الرجل)، والتي يذوب أمام فتنتها كثير من الرجال، فيصعب عليهم الثبات أمامها، ومقاومة إغرائها.

وكم من رؤوس طُئطئت، وبيوت خربت، وأنفس قتلت، ودماء سكبت..؟

كل ذلك وراءه فتنة النساء.

وكان لهذا العابد نصيب في الوقوع في هذا الشر، والانجرار وراء

حبائل الشيطان، وظل على ذلك سبعة أيام بلياليها غطت عليه المعصية، وغشته ظُلة على رأسه، فكانت مبعدة له هذه الفترة عن ربه -تبارك وتعالى-، نسي عبادته، وذكره وصلاته، غاب عن خلده تلك الساعات، التي تقرب فيها بالطاعات ، وانفرد مع ربه في الخلوات.

فكانت فعلًا تلك المعصية غطاءً أنسته عبادة سبعين سنة.. نسأل الله العافية، والثبات على دينه.

ثم ما لبث أن انكشف ذلك الغطاء، ورفع عنه غشاء الفتنة النكراء، فانتبه من رقاده، وقام من غفلته وسباته، دعاه داع الخير والإيمان، والطاعة والإحسان، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٠١]. فأبصر بعد العمى، واهتدى بعد الضلالة، وهذا من لطف الله به وإحسانه إليه، أن وفقه بعد المعصية، للتوبة والإنابة، فأقبل إلى ربه تائبًا على بابه، منطرحًا بجنابه، معترفًا بذنبه، مستغفرًا لجرمه، فكانت توبته توبة نصوحا، أظهر فيها البكاء والنوح، فانتفض من بين يديها، شعاره:(إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهۡدِينِ).

وكان من تمام توبته، وصدق أوبته، أن أقبل على الله خالقه ومولاه، بالسجود والركوع، والتعبد والخضوع. وتقرب الأواه، بالتهجد والصلاة، ليكفر عن ذنبه ويسترضي ربه -تبارك وتعالى-.

ولاعترافه بقبيح ما صنع، أكثر من الصلاة والسجود فكان يؤديها، في كل خطوة يخطوها، ومشية يمشيها، وبينما هو على تلك الحالة أرخى الليل سدوله. فكان المقيل، وانتهاء المسير، إلى دكان مساكين عددهم اثنا عشر شخصًا فلشدة العياء والتعب، وما علاه من الجهد والنصب، رمى بنفسه بين رجلين من القوم، مستسلمًا بعدها للنوم. وكان لراهب مع هؤلاء النفر، قصة وخبر، فيبعث بأرغفة إليهم، ويتصدق بها في كل ليلة عليهم ، وصار العدد الآن، زيادة على ما كان.

إذ صاروا ثلاثة عشر إنسانًا، ولم يدر الجميع بهذه الزيادة، والتي أحدثت لأحدهم مشكلة مع الراهب المعطي صاحب الأرغفة، فأعطى كل واحد منهم رغيفًا، ومنهم الرجل التائب، وبقي شخص منهم لم يُعط، رغيفًا فشكى حاله للراهب قائلًا له: مالك لم تعطني رغيفي؟ فأجابه الراهب، متعجبًا من السؤال الذي طُرح عليه كالمتهم له في إنفاقه، والمشكك في تصدقه، فقال: تُراني أمسكت عنك؟ سل هل أعطيت أحدًا منكم رغيفين؟ فسألوا عن الجواب، وبحثوا عن الأسباب، فكان الرد أن قالوا: لا، فتملك الغضب الراهب، فأقسم –وما كان ينبغي له ذلك– قائلًا: والله لا أعطيك الليلة شيئًا.

وكل هذا الكلام، والمشادة والخصام تحت سمع التائب، فحزن لحال المتروك، وتألم أن يبيت الليلة دون طعام ، وتحركت المشاعر

الفياضة، والأحاسيس الرقيقة في قلب هذا الإنسان، فدفع برغيفه، وما تُصدق به عليه إلى ذلك المتروك، وكان هذا العمل، والإنفاق خاتمة عمله، إذ أصبح من ليلته ميتًا قد فارق الحياة، وودع الدنيا، وانتقل إلى الأخرى، وجاء إلى دار الحساب والعمل، فوزنت أعماله..

جيء بعبادة سبعين سنة فوزنت بذنب سبع ليالي، فرجحت تلك الذنوب على عبادة عمر طويل، وهكذا سوء العمل، يجعل العبد في خيبة أمل.

ولكن ما زال هناك أمل، ومازال للتائب بقية عمل، أعقب تلك المعصية، وتلا ذلك الذنب، وكان سببًا في إنقاذه من النار، وسخط الجبار، وهو عمل خفيف، تصدقه بالرغيف.

فوزن الرغيف بأمر الخبير اللطيف، بذنب السبع الليال فكان من رحمة المتعال، أن رجُحت الصدقة، وما قدمه وأنفقه، على تلك الذنوب، والمعاصي والعيوب.

ولأهمية هذا الخبر، والحديث والأثر، كرر الصحابي الجليل، لأولاده قبل الرحيل: «أن اذكروا يا بني صاحب الرغيف».

الفوائد المنتقاة من القصة

-[الفائدة الأولى]-

وصية السلف لأولادهم، والاهتمام بتربيتهم

إن الصحابي أبا موسى الأشعري رضي الله عنه كان مما يشغله، ويسعى لتحقيقه صلاح أولاده، وتربيتهم التربية الصالحة، وإنشائهم النشأة المباركة.

فالولد الصالح ذخرًا للعبد في الدنيا وفي الآخرة، والنبي صلى الله عليه وسلم يقول: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، وعلم ينتفع به ، وولد صالح يدعو له»(١).

وفي الجنة يرفع العبد الدرجة بسبب استغفار ولده له، وثبت هذا في مسند أحمد، وسنن ابن ماجة عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الله -عز وجل- ليرفع الدرجة للعبد الصالح في الجنة، فيقول: يا رب أنى لي هذه؟ فيقول: باستغفار ولدك لك»(٢).

ومن بركة الولد الصالح يوم القيامة أن يُكسى أبواه حليتين، تفاصيل هذا فيما رواه أحمد في مسنده عن بريدة الأسلمي رضي الله عنه أن

---

(١) أخرجه مسلم – كتاب الوصية – باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته.

(٢) أخرج أحمد برقم : (١٠٣٧٨)، وابن ماجه – كتاب الأدب – باب بر الوالدين، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة: (١٥٩٨).

النبي ﷺ قال: «إن القرآن يلقى صاحبه يوم القيامة حيث ينشق عنه قبره كالرجل الشاحب، فيقول له: هل تعرفني؟ فيقول: ما أعرفك، فيقول: أنا صاحبك القرآن الذي أظمأتك في الهواجر، و أسهرت ليلك وأن كل تاجر وراء تجارته، وأنك اليوم من وراء كل تجارة، فيُعطى الملك بيمينه، والخلد بشماله، ويوضع على رأسه تاج الوقار، ويكسى والداه حليتين لا يقوم لهما أهل الدنيا، فيقولان: بما كسينا هذا فيقال: بأخذ ولدكما القرآن ، ثم يقال له: اقرأ واصعد في درج الجنة وغرفها، فهو في صعود مادام يقرأ، هذا كان، أو ترتيلًا»[1].

فهذه ثمرات عظام، وبركات جسام، يلقاها العبد أمامه، ويعاينها قُدّامه، حين يقوم بما أوجب الله تعالى عليه من واجب تربية الأولاد، ورعايتهم قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ﴾ [التحريم: ٦].

وقال تعالى: ﴿ وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَاۖ لَا نَسۡـَٔلُكَ رِزۡقٗاۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكَۗ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلتَّقۡوَىٰ ﴾ [طه: ١٣٢].

والنبي ﷺ يقول: «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته، والرجل في أهله راع، وهو مسؤول عن رعيته»[2].

---

(١) أخرجه أحمد برقم: (٢٢٣٣٧) ، وهو في السلسلة الصحيحة برقم: (٢٨٢٩).

(٢) أخرجه البخاري – كتاب الاستقراض – باب العبد راع في مال سيده ، ومسلم – كتاب الإمارة – باب فضيلة الإمام العادل.

فتربية الأولاد مسؤولية عظيمة، من فرط فيها سئل عنها يوم القيامة، وحاسبه الله على تفريطه وتقصيره. ولقد كان أبو موسى رضي الله عنه نعم المربي، وخير الموجه لأولاده، ومن ثمرة ذلك: الإمام، الفقيه، القاضي المحدث أبو بُردة بن أبي موسى الأشعري، ومن بعد أبي بُردة أولاده: سعيد ويوسف وبلال، ومن ثم حفيده بُريد بن عبد الله بن أبي بُردة، وكل هؤلاء ممن حدث ونشر العلم[1]، فهذه هي ثمرة التربية الصالحة.

* * *

فاللهم اصلح ذريتنا ، واغفر لنا يا ذا الجلال والإكرام

(١) سير أعلام النبلاء: (٤/ ٣٤٤).

-[الفائدة الثانية]-

عدم الاغترار بالعمل، والحذر من الأمن من مكر الله تعالى

إن هذا الرجل عبد الله سبعين سنة أيامها مع لياليها، ومع ذلك تعرض للفتنة فلم يثبت أمامها، ولم يصبر عليها، فوقع في الحرام، وعاقر الآثام.

فهل بعد هذا يأمن العاقل الفطن من مكر الله تعالى، ويجره عمله، وما يقدمه من طاعة إلى الاغترار بنفسه، والفخر بذاته.

والله -عز وجل- حذر في كتابه الكريم من الأمن من مكره، وبين عاقبة الذين يأمنون مكره -عز وجل- قال تعالى: ﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ .أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ .أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٩٧-٩٩].

فذم الله -عز وجل- في هذه الآيات الذين أمنو مكره -تبارك وتعالى- والتهو في هذه الدنيا باللعب واللهو، والنوم والزهو. وبين المولى -تبارك وتعالى- عاقبة من كان كذلك ممن -أمن عذابه وجزاءه- واستدُرج بالنعمة والصحة، أنه من الخاسرين.

وأخبر الله -عز وجل- عن قوم فرحوا بما عندهم، وبطروا، وأشروا، وأعجبوا، وظنوا أن ذلك العطاء لا يبيد، وأنه دال على رضا الله -عز وجل-

عنهم فبين عاقبتهم، وما آل إليه أمنهم من مكر الله، وغرورهم بما عندهم: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾[الأنعام: ٤٤].

قال القرطبي (٤/ ٢٩٢): «فكان ذلك استدراجًا من الله تعالى كما قال: ﴿وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ﴾ [الأعراف: ١٨٣]، [القلم: ٤٥]. نعوذ بالله من سخطه ومكره.

قال بعض العلماء: رحم الله عبدًا تدبر هذه الآية: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾[الأنعام: ٤٤]. وقال ابن مسعود رضي الله عنه: «أكبر الكبائر الإشراك بالله، والأمن من مكر الله، والقنوط من رحمة الله، واليأس من روح الله» رواه عبدالرزاق[١].

وقال العلامة الفوزان -حفظه الله- (إعانة المستفيد شرح كتاب التوحيد) (٢/ ٢٧٢): «الأمن من مكر الله ينافي التوحيد، لأنه يدل على عدم الخوف من الله -عز وجل-» وقال العلامة العثيمين -رحمه الله- (القول المفيد شرح كتاب التوحيد) (٢/ ١٠٢): «ويستفاد من هذه الآية (أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ..):

١- الحذر من النعم التي يجلبها الله للعبد لئلا تكون استدراجًا لأن كل نعمة فلله عليك وظيفة شكرها، وهي القيام بطاعة المنعم،

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه برقم: (١٩٧٠١).

فإذا لم تقم بها مع توافر النعم، فاعلم أن هذا من مكر الله.

٢- تحريم الأمن من مكر الله، وذلك من وجهين:

الأول: أن الجملة بصيغة الاستفهام الدال على الإنكار والتعجب.

الثـــــاني: قولــــــه تعــــــالى: ﴿فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾» (ا.هـ).

واغترار الإنسان بعمله، وإعجابه بطاعته، يؤدي به إلى احتقار الآخرين، والنظر إليهم نظرة ازدراء واحتقار، والبغي عليهم، والتقول على الله بغير علم.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كان رجلان في بني إسرائيل متواخيين، فكان أحدهم يذنب، والآخر مجتهد في العبادة، فكان لا يزال المجتهد يرى الآخر على الذنب، فيقول: أقصر، فوجده يومًا على ذنب، فقال له: أقصر، فقال: خلني وربي، أبُعثتَ عليّ رقيبًا؟ فقال: والله لا يغفر الله لك، أو لا يدخلك الله الجنة، فقبض أرواحهما، فاجتمعا عند رب العالمين، فقال لهذا المجتهد: أكنت بي عالمًا؟ أو كنت على ما في يدي قادرًا؟ وقال للمذنب: اذهب فادخل الجنة برحمتي، وقال للآخر: اذهبوا به إلى النار» قال أبو هريرة: «والذي نفسي بيده لتكلم بكلمة أوبقت دنياه وآخرته»[1].

---

(١) أخرجه أبو داود – كتاب الأدب – باب في النهي عن البغي – رقم: ٤٩٠١، وصححه الألباني في المشكاة: (٢٣٤٧).

قال العلامة صالح الفوزان (إعانة المستفيد) (٢/ ٣٠٣): «في الحديث دليل على تحريم إعجاب الإنسان بنفسه، واحتقاره الآخرين» (ا.هـ).

وقال العلامة العثيمين (القول المفيد) (٢/ ٥٠١): «ووجه إحباط الله عمله على سبيل العموم حسب فهمنا -والعلم عند الله-: أن هذا الرجل كان يتعبد الله، وفي نفسه إعجاب بعمله، وإدلال بما عمل على الله -عز وجل- كأنه يمنّ على الله -عزوجل- بعمله، وحينئذ يفتقد ركنًا عظيمًا من أركان العبادة، لأن العبادة مبنية على الذل والخضوع» (ا.هـ).

فمما يؤخذ من هذه القصة عدم الأمن من مكر المولى -عز وجل- أو الاغترار بالعمل، فإن هذين الأمرين سبب في هلاك الإنسان، وبعده عن الرحمن -تبارك وتعالى- اللهم إنا نعوذ بك من الأمن من مكرك، والاغترار بأعمالنا، ونعوذ بك من العجب والغرور.

-[الفائدة الثالثة]-

خطــورة فتنــة النســاء

إن فتنة النساء من أعظم الفتن وأخطرها، وضررها على الرجال كبير، وأثرها في حياة المجتمع خطير، ولذلك حذر النبي ﷺ من شرها، وبيّن خطرها.

فعن أسامة بن زيد رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء»(١).

فالرسول المصطفى ﷺ يوضح لنا من خلال هذا الحديث -وهو الصادق المصدوق- خطورة هذه الفتنة، وأنها أضر فتنة على الرجال، وكم من رجل كان في قمة الصلاح، وأعالي مراتب الخير؟، فعصفت بقلبه، وفتنت لبه النساء، سال لعابه، وتساقطت أطرافه، ولم يتمالك نفسه أمامها، وقديمًا قيل:

قل للمليحة في الخمار الأسود ** ماذا فعلت بناسك متعبد
قد كان شمر للصلاة ثيابه ** حتى عرضت له بباب المسجد
ردي عليه صلاته وصيامه ** لا تفتنيه بحق رب محمد

---

(١) أخرجه البخاري - كتاب النكاح - باب ما يتقى من شؤم المرأة، ومسلم - كتاب الرقاق - باب أكثر أهل الجنة النساء.

وفي حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه يحدثنا النبي ﷺ عن بني إسرائيل، وأن أول فتنتهم كانت في النساء، فيقول ﷺ: «فاتقوا الدنيا، واتقوا النساء، فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء»(١).

وكما أن هذه الفتنة الدهماء، عصفت بمن قبلنا، وأغوتهم عن دينهم، فكذلك هي في هذا الزمان، بل لم ينتشر أمر هذه الفتنة في عصر من العصور، كما في عصرنا هذا، عصر القنوات، والإذاعات، والجرائد، والمجلات، والمواقع الإباحية في الإنترنت، فاستغل أعداء الإسلام، ومن يحب أن تنتشر الفاحشة في الذين آمنوا -من العلمانيين والمنافقين- هذه الوسائل، المتقدمة، والتكنولوجيا المتطورة، لإفساد المسلمين، وهتك حيائهم وعفتهم، فأغرقت بيوت المسلمين بهذا الضياع، وسلم كثير من المسلمين عقولهم لأهل الفسق والفجور، بطبق من ذهب، يعبثون بها، ويهتكون سترها، ونبتة من جراء هذه الإباحية الجنسية، نابتة من الشباب هم أقرب إلى التخنث منهم إلى الرجولة، حتى أصبحنا نرى من يضع المساحيق، وأدوات التجميل على وجهه، وصرنا ونسمع عن موضات عفنة، في صفوف الشباب، أسمائها تنبي عن ضياع وميوعة، ومنها موضة لبنطال اسمها (طيّحني)، ما أن ينحني الشاب إلا وينكشف شيء من إليتيه إن لم يكن

---

(١) أخرجه مسلم – كتاب الرقاق – باب أكثر أهل الجنة الفقراء وأكثر أهل النار النساء .

أكثر من ذلك نسأل الله الستر، ثم تلاها أخرى وهي موضة (سامحني يا أبي)، والتي تحتوي على سُسته (شريط) من قدام وأخرى من الخلف، فلهذا سموها (سامحني يا أبي)، ولماذا يسامحه أبوه؟ المعنى في بطن الموضة، نسأل الله العافية والستر.

وكل هذا يفعله الشباب غالبًا، وما يتبعه من قصات الشعر المائعة من أجل النساء، وجرهم إليها شغفهم بهذه الفتنة العمياء.

ومن آثار فتنة النساء على بعض العُباد -فضلًا عن غيرهم- ما ذكره أهل التاريخ والسير أنه كان بمصر رجل يلزم المسجد للأذان، والصلاة فيه، وعليه بهاء الطاعة، ونور العبادة، فرقى يومًا المنارة على عادته للأذان، وكان تحت المنارة دار لنصراني، فاطلع فيها فرأى ابنة صاحب الدار، فافتتن بها فترك الأذان، ونزل إليها، ودخل الدار عليها، فقالت: ما شأنك وما تريد؟ قال: أريدك، قالت: لماذا؟ قال: قد سلبت لبي ، وأخذت بمجامع قلبي، قالت: لا أجيبك إلى ريبة أبدًا، قال: أتزوجك، قالت: أنت مسلم، وأنا نصرانية، وأبي لا يزوجني منك، قال: أتنصر، قالت: إن فعلت أفعل، فتنصر الرجل ليتزوجها، وأقام معهم في الدار، فلما كان أثناء اليوم رقي إلى سطح كان في الدار، فسقط منه فمات.

فلم يظفر بها وفاته دينه، فنسأل الله العافية، والمعافاة الدائمة في الدنيا والآخرة.

والمولى -عز وجل- يقول في كتابه الكريم: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴾ [آل عمران:١٤].

قال العلامة ابن كثير -رحمه الله- (تفسير) (١/ ٣٥٩): «يخبر تعالى عما زين للناس في هذه الحياة الدنيا من أنواع الملاذ من النساء، والبنين فبدأ بالنساء، لأن الفتنة بهن أشد كما ثبت في الصحيح أنه ﷺ قال: (ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء)، فأما إذا كان القصد بهن الإعفاف، وكثرة الأولاد، فهذا مطلوب مرغوب فيه، مندوب إليه كما وردت الأحاديث بالترغيب في التزويج، والاستكثار منه» (ا.هـ).

وقال الإمام القرطبي -رحمه الله- (التفسير) (٢/ ٤٨٩): «قوله تعالى (مِنَ ٱلنِّسَآءِ) بدأ بهن لكثرة تشوف النفوس إليهن، لأنهن حبائل الشيطان، وفتنة الرجال، قال رسول الله ﷺ: (ما تركت بعدي فتنة أشد على الرجال من النساء) أخرجه البخاري ومسلم، وفتنة النساء أشد من جميع الأشياء» (ا.هـ).

وقال العلامة ابن القيم -رحمه الله- (الجواب الكافي) (٢٥٦): «ولقد ركّب الله في طبع الرجل ميلًا إلى المرأة كما يميل العطشان إلى

الماء، والجائع إلى الطعام، حتى أن كثيرًا من الناس يصبر عن الطعام والشراب، ولا يصبر عن النساء، وهذا لا يذم إذا صادف حلالًا، بل يُحمد» (ا.هـ).

❊ ❊ ❊

فاللهم اغننا بحلالك عن حرامك .

وبطاعتك عن معصيتك ، وبفضلك عمن سواك .

-[الفائدة الرابعة]-

مكر الشيطان وكيده

فالشيطان لم يترك هذا العابد في سلام، بل ظل مترقبًا له، حتى وجد الفرصة المناسبة، ليفسد فريسته، بذلك الطُعم، ولطول خبرة الشيطان، ومعرفته بالإنسان، تمكن من إيقاع الفريسة في شباكه، وإذا كان من عبد الله سبعين عامًا ما سلم من كيده ومكره، وشباكه وحبائله، فكيف بمن هو عن العبادة بمنئ، نسأل الله العافية.

وعلى كل فهذه وظيفة الشيطان، وعمله الذي يسعى إليه ليل نهار، فهو متفرغ لإغواء بني آدم، ليس له هم سواه، ولذلك حذرنا الله -عز وجل- منه، وبين لنا خطورة مكائده وخطواته.

قال تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأعراف:٢٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر:٦].

ولقد أقسم إبليس الرجيم أن يضل الناس، وأن يخرجهم عن طريق الجنة والصلاح، قال تعالى: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ . إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ [ص:٨٢، ٨٣].

وأخبر الله عنه أنه قال: ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ﴾.

[النساء:١١٩].

ونهانا المولى -عز وجل- عن اتباع خطوات الشيطان فقال: ﴿كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ. إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:١٦٨ – ١٦٩].

وقال تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾[البقرة:٢٠٨].

وبين -عز وجل- مراد الشيطان، ومرامه من بني آدم: ﴿وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء:٦٠]، وقال تعالى: ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [الحشر:١٦].

وأخبر الله -عز وجل- عن ما يأمر به الشيطان، وما يعد به الناس فقال: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٦٨].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ . إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ [المائدة:٩٠-٩١].

وقال تعالى: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء:١٢٠].

وولاية الشيطان سبب للخسران قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾ [النساء:١١٩].

ولقد حمل الشيطان على عاتقه مهمة إضلال البشر، وإخراجهم من النور إلى الظلمات، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة:٢٥٧].

ومع شدة عداوة الشيطان، كما دلت عليه آيات القرآن، وحرصه على إغواء الإنسان. إلا أن الله -عز وجل- لم يجعل له سلطانًا على عباد الله المتقين المخلصين.

قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل:٩٩].

وقال -عز وجل-: ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: من الآية ٧٦].

وقد يقع المؤمن في كيده وحبائله، ولكن من رحمة الله تعالى أن فتح للعاصي باب التوبة.

❋ ❋ ❋

فاللهم تب علينا ، واغفر لنا ذنوبنا ، واصلح حالنا .

-[الفائدة الخامسة]-

الذنب للقلب.. غطاء وغشاء

إن الذنوب والمعاصي لها آثارها العظيمة، وتوابعها الجسيمة، ومن ذلك الران الذي يطبع على القلب، والغطاء الذي يعميه عن طاعة ربه -تبارك وتعالى- ولذلك كان التعبير في هذا الأثر بقوله: «فكُشف عنه غطاؤه»، وكلنا يعلم من خلال نصوص الكتاب والسنة، والواقع المشاهد والمعايش، أن الذنوب والمعاصي سبب في هلاك الأمم والشعوب، وخراب الأفراد والمجتمعات، ودمار الزر وع والمعاش، وحلول الخوف، والقلق، والهلع.

وإليك دررًا، وكلمات حسان للعلامة الإمام شمس الدين ابن القيم الجوزية -رحمه الله- إذ يقول في كتابه (الجواب الكافي) (ص٥٦-٥٧): «فما ينبغي أن يعلم أن الذنوب والمعاصى تضر ولا شك أن ضررها فى القلوب كضرر السموم في الأبدان على اختلاف درجاتها في الضرر، وهل فى الدنيا والآخرة شر وداء إلا سببه الذنوب والمعاصي.

فما الذي أخرج الأبوين من الجنة دار اللذة والنعيم، والبهجة والسرور إلى دار الآلام، والأحزان والمصائب، وما الذي أخرج إبليس من ملكوت السماء، وطرده ولعنه، ومسخ ظاهره وباطنه

فجعلت صورته أقبح صورة وأشنعها، وباطنه أقبح من صورته وأشنع، وبُدل بالقرب بعدًا، وبالرحمة لعنةً، وبالجمال قبحًا، وبالجنة نارا تلظى، وبالإيمان كفرًا، وبموالاة الولي الحميد أعظم عداوة ومشاقة، وبزجل التسبيح، والتقديس، والتهليل زجل الكفر والشرك، والكذب والزور والفحش، وبلباس الإيمان لباس الكفر والفسوق والعصيان.

فهان على الله غاية الهوان، وسقط من عينه غاية السقوط، وحل عليه غضب الرب تعالى فأهواه ومقته أكبر المقت، فأرداه فصار قوادًا لكل فاسق ومجرم، رضي لنفسه بالقيادة بعد تلك العبادة والسيادة، فعياذًا بك اللهم من مخالفة أمرك، وارتكاب نهيك.

وما الذي أغرق أهل الأرض كلهم حتى علا الماء فوق رأس الجبال، وما الذي سلط الريح العقيم على قوم عاد حتى ألقتهم موتى على وجه الأرض كأنهم أعجاز نخل خاوية، ودمرت مامر عليه من ديارهم وحروثهم، وزروعهم، ودوابهم حتى صاروا عبرة للأمم إلى يوم القيامة، وما الذي أرسل على قوم ثمود الصيحة حتى قطعت قلوبهم في أجوافهم، وماتوا عن آخرهم، وما الذي رفع قرى اللوطية حتى سمعت الملائكة نبيح كلابهم ثم قلبها عليهم فجعل عاليها سافلها فأهلكم جميعا ثم أتبعهم حجارة من سجيل السماء أمطرها عليهم فجمع عليهم من العقوبة ما لم يجمعه علي أمة غيرهم،

ولإخوانهم أمثالها، وما هي من الظالمين ببعيد، وما الذي أرسل على قوم شعيب سحاب العذاب كالظلل فلما صار فوق رؤوسهم أمطر عليهم نارًا تلظى، وما الذي أغرق فرعون وقومه في البحر ثم نقلت أرواحهم إلى جهنم فالأجساد للغرق، والأرواح للحرق، وما الذي خسف بقارون وداره، وماله وأهله، وما الذي أهلك القرون من بعد نوح بأنواع العقوبات، ودمرها تدميرا، وما الذي أهلك قوم صاحب يس بالصيحة حتى خمدوا عن آخرهم، وما الذي بعث على بني إسرائيل قوما أولي بأس شديد فجاسوا خلال الديار، وقتلوا الرجال، وسبوا الذراري والنساء، وأحرقوا الديار، ونهبوا الأموال ثم بعثهم عليهم مرة ثانية فاهلكوا ما قدروا عليه، وتبروا ما علو تتبيرا، وما الذي سلط عليهم أنواع العذاب، والعقوبات مرة بالقتل والسبي وخراب البلاد، ومرة بجور الملوك، ومرة بمسخهم قردة وخنازير، وآخر ذلك أقسم الرب -تبارك وتعالى- ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب.

قال الإمام أحمد: ثنا الوليد بن مسلم، ثنا صفوان بن عمر، وحدثني عبد الرحمن بن جبير بن نفير عن أبيه قال: لما فتحت قبرص فُرق بين أهلها فبكى بعضهم إلى بعض فرأيت أبا الدر داء جالساُ وحده يبكى. فقلت: يا أبا الدرداء ما يبكيك في يوم أعز الله فيه الإسلام

وأهله؟ فقال: ويحك يا جبير ما أهون الخلق على الله -عز و جل- إذا أضاعوا أمره بينما هي أمة قاهرة ظاهرة لهم الملك تركوا أمر الله فصاروا إلى ما ترى» (ا.هـ).

❋ ❋ ❋

فنعوذ بك اللهم من شرور أنفسنا ، وسيئات أعمالنا .

-[الفائدة السادسة]-

(...تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ)

إن الإنسان بطبعه مجبول على الذنب والخطأ، والنبي ﷺ يقول: «لو لم تذنبوا لذهب الله بكم، ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله فيغفر لهم»(١).

ومن أجل ذلك فتح المولى -عز وجل- باب التوبة للعصاة، بل قد تكون هذه المعصية خيرًا له حيث يظهر من التوبة، والندم والذل، والاحتقار والانكسار، وصدق اللجوء إلى الله، ودوام التضرع، والدعاء، والإكثار من الحسنات ما تكون تلك السيئة به سبب رحمته، وهذا معنى قول بعض السلف: «إن العبد ليعمل الذنب يدخل به الجنة، ويعمل الحسنة يدخل بها النار، قالوا كيف؟ قال: يعمل الذنب فلا يزال نصب عينيه خائفًا منه مشفقًا وجلًا، باكيًا نادمًا، مستحيا من ربه، منكسر القلب بين يديه، فيكون ذلك الذنب خيرًا له من طاعات كثيرة، بما ترتب عليه من هذه الأمور، ويعمل الحسنة فلا يزال يمن بها على ربه، ويتكبر بها، ويُعجب بنفسه، فيورثه ذلك ما يكون سبب هلاكه».

---

(١) أخرجه مسلم ـ كتاب التوبة ـ باب سقوط الذنوب بالاستغفار توبة .

فينبغي للعبد ألا يقنط من رحمة الله مهما ارتكب من الذنوب، إذا تاب منها وأناب، وأن يُلح على الله بالدعاء، ويطمع في الإجابة، ومن أدمن قرع الباب، يوشك أن يُفتح له، والمؤمن بطبعه رجاع إلى الله، يشعر بمرارة الذنب، وحرارة المعصية، فيبادر بالتوبة إلى الله تعالى قال -عز وجل-: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَـٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيۡطَـٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ﴾ [الأعراف:٢٠١]. وهذا الرجل -رفيقنا في هذه القصة- رجع إلى ربه، وانتبه من غفلته، وقام منتفضًا من ذنبه، كُشف عنه غطاؤه، ورُفع له غشاؤه، وذهبت ظلة المعصية من على رأسه، فأقبل بعدها تائبًا إلى الله -عز وجل-، وليس هذا الأمر مقتصرًا على العابد من بني إسرائيل، بل هناك الكثير والكثير، كيف لا وهي صفة المؤمنين، وطريقة المخبتين، الرجوع إلى رب العالمين.

ومن ذلك قصة الجهنية التي أتت النبي ﷺ وهي حبلى من الزنى، فقالت: يا رسول الله أصبتُ حدًا فأقمه علي، فدعا نبي الله ﷺ وليها، فقال: «أحسن إليها، فإذا وضعت فأتني، ففعل، فأمر بها نبي الله ﷺ فشدت عليها ثيابها، ثم أمر بها فرجمت، ثم صلى عليها، فقال له عمر: تُصلي عليها يا رسول الله وقد زنت؟! قال: (لقد تابت توبة لو قُسمت بين سبعين من أهل المدينة لوسعتهم، وهل وجدت أفضل من أن جادت بنفسها لله -عز وجل-؟!)»[1].

---

(١) أخرجه مسلم – كتاب الحدود – باب من اعترف على نفسه بالزنى.

فتأمل إلى هذه المرأة، وصدق توبتها، وكيف أن ذنبها جعلها في هذا الفضل، يوم أن تابت منه.

وإن نسينا فلن ننسى خبر ماعز بن مالك، الذي أصر على رسول الله ﷺ أن يطهره من ذنبه، ويقيم عليه حد الله فيه، فعن بريدة رضي الله عنه قال: جاء ماعز بن مالك إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله طهرني، فقال: «ويحك ارجع فاستغفر الله وتب إليه، قال: فرجع غير بعيد، ثم جاء)، فقال: يا رسول الله طهرني، فقال النبي ﷺ: ويحك ارجع فاستغفر الله وتب إليه قال: فرجع غير بعيد، ثم جاء فقال: يا رسول الله طهرني، فقال النبي ﷺ مثل ذلك، حتى إذا كانت الرابعة، فقال له رسول الله ﷺ فيم أطهرك؟ فقال: من الزنى، فسأل رسول الله: أبه جنون، فأُخبر أنه ليس به جنون، فقال: أشرب خمرًا؟، فقام رجل فاستنكهه فلم يجد منه ريح خمر، قال: فقال: رسول الله ﷺ أزنيت؟ قال: نعم، فأمر به فرُجم، فكان الناس فيه فرقتين: قائل يقول: لقد هلك، لقد أحاطت به خطيئته، وقائل يقول: ما توبة أفضل من توبة ماعز: أنه جاء إلى النبي ﷺ فوضع يده في يده، ثم قال: اقتلني بالحجارة، قال: فلبثوا بذلك يومين أو ثلاثة، ثم جاء رسول الله ﷺ وهم جلوس فسلم ثم جلس، فقال: استغفروا لماعز بن مالك، قال: فقالوا: غفر الله لماعز بن مالك، قال: فقال رسول الله ﷺ: لقد تاب توبة لو قسمت بين أمة لو سعتهم»[1].

---

(١) أخرجه مسلم – كتاب الحدود – باب من اعترف على نفسه بالزنى.

فهذه هي منزلة التوبة والرجوع إلى الخالق -تبارك وتعالى-، والانطراح بين يديه.

وهوا لقائل -تبارك وتعالى-: ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الزمر:٥٣].

فهو -عز وجل- أجود الأجود ين، وأكرم الأكرمين، وأرحم الراحمين، سبقت رحمته غضبه، وحلمه عقوبته، وعفوه مؤاخذته، أحق من ذكر، وأحق من شكر، وأجود من سُئل، وأكرم من قصد، وأرأف من ملك، يشكر على القليل من العمل، ويغفر الكثير من الزلل، يفرج همًا، ويغفر ذنبًا، ويكشف كربًا، ويغني فقيرًا، ويجبر كسيرا، ويشبع جائعًا، ويُعافي مبتلى، ويقبل تائبًا، ويغيث لهفانًا، وينصر مظلومًا، ويقصم جبارًا، كل غني إليه فقير، وكل جبار إليه ذليل كسير، وكل عسير عليه يسير، يُقيل العثرات، ويستر العورات، ويؤمن روعات، ويجيب الدعوات، ولا تختلف عليه اللغات على كثرة الحاجات، وتفنن المسئولات: (كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ) وكل ملك زائل إلا ملكه، وكل ظل قالص إلا ظله، وكل فضل منطقع إلا فضله، يُطاع فيشكر، وبنعمته وتوفيقه أطيع، ويُعصى فيتجاوز، ويغفر وحقه أضيع، فكل من تحبه من الخلق، أو يحبك، أو تعامله، ويعاملك

إنما يريد ك لنفسه وغرضه منك، والرب -تبارك وتعالى- يريدك لك، ويعاملك لتربح عليه، لا ليربح عليك[1].

❋ ❋ ❋

فنسأل المولى -عز وجل- أن يغفر الذنوب والأوزار ،
وأن يقيل عثرتنا من النار.

---

(١) من (عقود اللؤلؤ والمرجان في وظائف شهر رمضان) للشيخ إبراهيم آل عبدالمحسن، ص٤٣٧ – ٤٣٨ بتصرف يسير.

-[الفائدة السابعة]-

الحسنـات يذهـبن السيـئات

من تمام التوبة أن يتبع العبد المذنب السيئة الحسنة، وهذا ما فعله الرجل التائب بعد أن أفاق من معصيته، وكان كلما خطا خطوة صلى، وسجد لله رب العالمين.

فأتبع السيئات الحسنات، وتقرب بها لرب البريات، ذلك من إخلاصه في توبته، وصدقه في أوبته، ولقد دل القرآن الكريم المؤمنين على هذا المنهج الرباني في التخلص من السيئات.

فقال تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ [هود:١١٤].

وجاء في البخاري ومسلم -واللفظ له- سبب نزول هذه الآية الكريمة فعن عبد الله قال: «جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إني عالجت امرأة في أقصى المدينة، وإني أصبت منها ما دون أن أمسها، فأنا هذا، فاقض في ما شئت، فقال له عمر: لقد سترك الله، لو سترت نفسك، قال: فلم يرد النبي ﷺ شيئًا، فقام الرجل، فانطلق فأتبعه النبي ﷺ رجلًا دعاه، وتلا عليه هذه الآية (وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ..) الآية، فقال رجل من القوم: يا نبي الله هذا له خاصة؟ قال: بل للناس كافة»(١).

---

(١) أخرجه البخاري - كتاب مواقيت الصلاة - باب الصلاة كفارة. ومسلم كتاب التوبة - باب قوله تعالى: (إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ).

وفي حديث أبي ذر أن النبي ﷺ قال له: «اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن»(١).

قال العلامة العثيمين في (شرح الأربعين النووية) (ص:١٩٨): «من فوائد هذا الحديث، فضل الله -عز وجل- على العباد، وذلك لأننا لو رجعنا إلى العدل لكانت الحسنة لا تمحو السيئة إلا بالموازنة، وظاهر الحديث العموم».

ومن فضل الله تعالى على المسلم التائب أن الله -عز وجل- يبدل سيئاته حسنات.

قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامًا ۞ يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا ۞ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان:٦٨، ٧٠] فما أكرم الله، وأحلمه على خلقه وعباده.

يقول المولى -عز وجل- في الحديث القدسي: «يا ابن آدم إنك ماد عو تني ورجوتني غفرت لك على ما كان فيك، ولا أبالي، يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني، غفرت لك ولا أبالي،

---

(١) أخرجه الترمذي – كتاب البر والصلة – باب ما جاء في معاشرة الناس. وجاء من حديث معاذ ابن جبل رضي الله عنه.

يا ابن آدم، إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا، ثم لقيتني لا تشرك بي شيئًا، لأتيتك بقرابها مغفرة»[1].

فهو الغفور عن المسيئين، والمقصرين، والمذنبين، إذا تابوا، وأنابو فإنه يغفر ذنوبهم، ويستر عيوبهم، ولو كانت ملئ الدنيا.

قال ابن القيم:

وهو الغفور فلو أتى بقرابها ** من غير شرك بل من العصيان

لأتاه بالغفران ملئ قرابها ** سبحانه هو واسع الغفران

ومن سعة مغفرته، وعظيم فضله على المؤمنين، ما جاء عند ابن عدي عن جابر بن عبدالله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مر رجل ممن كان قبلكم في بني إسرائيل بجمجمة، فنظر إليها فقال: أي رب أنت أنت، وأنا أنا، أنت العواد بالمغفرة، وأنا العواد بالذنوب، ثم خرّ ساجدًا، فقيل له: أرفع رأسك، فأنا العواد بالمغفرة، وأنت العواد بالذنوب، فرفع رأسه فغفر له»[2].

(١) أخرجه الترمذي – كتاب الدعوات – باب خلق الله مائة رحمة ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم: (٤٣٣٨).

(٢) انظر (السلسلة الصحيحة) للعلامة الألباني: (٣٢٣١).

-[الفائدة الثامنة]-

فضل الصدقة وإن وقعت في يد غير محتاج لها

ويدل على ذلك ما فعله الراهب المتصدق حيث أعطى الرجل التائب، يبتغي بذلك وجه الله، وهو يظنه مسكينًا وليس كذلك.

ومثل هذا ما جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «قال رجل: لأتصدقن بصدقة فخرج بصدقته فوضعها في يد سارق، فأصبحوا يتحدثون: تُصدق على سارق، فقال: اللهم لك الحمد، لأتصدقن بصدقة، فخرج بصدقته فوضعها في يدي زانية، فأصبحوا يتحدثون: تُصدق على زانية، فقال: اللهم لك الحمد، على زانية، لأتصدقن بصدقة، فخرج بصدقته، فوضعها في يد غني، فأصبحوا يتحدثون: تُصدق على غني، فقال: اللهم لك الحمد على سارق، وعلى زانية، وعلى غني، فأتي فقيل له: أما صدقتك على سارق فلعله أن يستعف عن سرقته، وأما الزانية فلعلها أن تستعف عن زناها، وأما الغني فلعله يعتبر فينفق مما أعطاه الله»(١).

قال الحافظ ابن حجر العسقلاني (الفتح) (٣/ ٢٩١): «وفيه أن نية المتصدق إذا كانت صالحة قبلت صدقته، ولو لم تقع الموقع» (ا.هـ).

(١) أخرجه البخاري – كتاب الزكاة – باب إذا تصدق على غني وهو لا يعلم، ومسلم – كتاب الزكاة – باب ثبوت أجر المتصدق.

ومثله حديث أبي الجويرية أن معن بن يزيد رضي الله عنه حدثه قال: «بايعت رسول الله ﷺ أنا وأبي وجدي، وخطب عليّ و أنكحني، وخاصمت إليه، وكان أبي يزيد أخرج دنانير يتصدق بها، فوضعها عند رجل في المسجد، فجئت فأخذتها فأتيته بها، فقال: والله ما إياك أردت، فخاصمته إلى رسول الله ﷺ فقال: لك ما نويت يايزيد، ولك ما أخذت يا معن»[1].

قال الحافظ رحمه الله (الفتح) (٣/ ٢٩٢): «وفيه أن للمتصدق أجر ما نواه سواء صادف المستحق، أو لا».

---

(١) أخرجه البخاري – كتاب الزكاة – باب إذا تصدق على ابنه وهو لا يشعر.

-[الفائدة التاسعة]-

لا تحقرن من المعروف شيئًا

لا ينبغي للإنسان المسلم أن يحتقر من المعروف شيئًا، أو يزدريه ويستقله، فإنه لا يعلم أي طاعة تنفعه، وتكون سببًا في نجاته، وغفران ذنوبه، ورفع درجته، فإن هذا الرجل لما وزنت السبع الليالي بذنوبها، ومعاصيها مع الرغيف الذي تصدق به، رجُح الرغيف على السبع الليالي، وكان سببًا في غفران ذنوبه، وتجاوز الله عنه، مع أنه عمل يسير بجانب السبعين سنة، وما فيها من العبادة، ولما وزنت بالسبع الليالي رجحت السبع على السبعين.

فلا ينبغي للمسلم أن يحتقر من الخير شيئًا فإنه لايعلم الطاعة التي تكون سببًا في دخوله الجنة، ونجاته من النار.

وها هو النبي ﷺ يخبرنا عن رجل دخل الجنة بعمل يسير قدمه، فكان سببًا في دخوله ذلك النعيم المقيم، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «لقد رأيت رجلًا يتقلب في الجنة، في شجرة قطعها من ظهر الطريق، كانت تؤذي الناس»[1].

فتأمل كيف أن ذلك العمل والذي يستهين به كثير من الناس، ويرونه مما لا يعنيهم كان سببًا في دخول ذلك الرجل الجنة.

---

(١) أخرجه مسلم – كتاب البر والصلة – باب فضل إزالة الأذى عن الطريق.

وأخبر النبي ﷺ عن رجل غفر له، ودخل الجنة بسبب سقياه لكلب.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «أن رجلًا رأى كلبًا يأكل الثرى من العطش، فأخذ الرجل خفهُ فجعل يغرف له به حتى أرواه، فشكر الله له، فأدخله الجنة»، وفي رواية «وإن لنا في البهائم أجرًا؟ فقال: نعم، في كل ذات كبد رطبة أجر»(١).

وكم من الناس، من يستخف بهذا العمل اليسير مع أنه طريق إلى الجنة.

ومن هذه الأعمال التي يتساهل بها بعض المسلمين، وهي سبب في دخول الجنة، ورفع الدرجات سد الفرج في الصفوف فقد أخبرنا النبي ﷺ في حديث عائشة رضي الله عنها فقال: «من سد فرجة في صف رفعه الله بها درجة، وبنى له بيتًا في الجنة» رواه الطبراني في الأوسط(٢).

بل رُبّ كلمة يقولها المؤمن، تكون سببًا في حلول رضوان الله عليه، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله لا يُلقي لها بالًا، يرفعه الله بها درجات»(٣).

---

(١) أخرجه البخاري – كتاب الأدب – باب رحمة الناس والبهائم ، ومسلم – كتاب السلام – باب فضل ساقي البهائم المحترمة وإطعامها.

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط – باب من اسمه محمد ، وصححه الألباني في الصحيحة رقم: (١٨٩٢).

(٣) أخرجه البخاري – كتاب الرقاق – باب حفظ اللسان.

فكم من عمل يظنه الإنسان صغيرًا لا يأبه له، ولعل النجاة في عمله، أو قوله، ولذلك أمرنا الرسول ﷺ ألا نحقر من المعروف شيئًا، فقال كما في حديث أبي ذر قال: قال لي النبي ﷺ: «لا تحقرن من المعروف شيئًا، ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق»[1].

حتى البسمة في وجه المسلم، والبشاشة في محياه، مما حث عليه المصطفى ﷺ كيف لا، وهي صدقة من الصدقات.

فعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «تبسمك في وجه أخيك صدقة»[2].

(١) أخرجه مسلم – كتاب البر والصلة – باب استحباب طلاقة الوجه عند اللقاء.

(٢) أخرجه ابن حبان في صحيحه – كتاب البر والإحسان – باب حسن الخلق. والحديث في صحيح الأدب المفرد: (٦٨٨).

-[الفائدة العاشرة]-

عدم القنوط من رحمة الله تعالى

إن أبا موسى الأشعري رضي الله عنه يذكر أبناءه بقصة صاحب الرغيف، وعند حالة احتضاره تحديدًا، ليبين لهم أن هذا الرجل رغم ما فعل من الآثام، وارتكب من الحرام، إلا أنه لم يقنط من رحمة الله -ذي الجلال والإكرام-، ولم ييأس من روحه، لعلمه بعظيم كرمه، وجزيل فضله، فهو الحليم الذي قد كمل في حلمه، فله الحلم الكامل الذي وسع السموات والأرض ولولا حلمه ومغفرته لزلزلت السموات والأرض من معاصي العباد، فقد قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ﴾ [فاطر:٤١].

قال ابن القيم (عدة الصابرين) (ص: ٢٣٧): «وفي الآية إشعار بأن السموات والأرض تهم وتستأذن بالزوال لعظم ما يأتي به العباد، فيمسكهما بحلمه، ومغفرته» (ا.هـ).

والله -عز وجل- يقول: ﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا ۝ أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٗا ﴾ [مريم:٩٠-٩١].

ومن كمال حلمه ما قاله النبي ﷺ: «ليس أحد أو ليس شيء أصبر على أذى سمعه من الله إنهم ليدعون له ولدًا، وإنه ليعافيهم ويرزقهم»(١).

فسبحان الحليم الذي لا يُعاجل العاصين بالعقوبة بل يعافيهم، ويرزقهم كأنهم ما عصوه مع قدرته عليهم.

وقد قرن سبحانه حلمه بالغنى، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٦٣] للدلالة على أن حلمه لم يكن عن حاجة، فهو مع حلمه على عباده، غني عنهم غير محتاج إليهم.

كما قرن حلمه بالعلم، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ [النساء: ١٢]، وقوله: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ [الحج:٥٩].

قال ابن القيم -رحمه الله- (بدائع الفوائد) (١/ ١٤٠): «فما قُرن شيء، أحسن من حلم إلى علم».

وقرن الله -عز وجل- حلمه بالمغفرة كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [فاطر:٤١]، وقال تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٣٥].

فإذا علمنا أنه تبارك وتعالى حليم فإننا نؤمل منه الخير، ولا نيأس أو يصيبنا القنوط(١).

---

(١) أخرجه البخاري - كتاب الأدب - باب الصبر على الأذى ، ومسلم كتاب صفة القيامة - باب لاأحد أصبر على أذى من الله -عز وجل-.

(١) راجع كتاب: (الأسماء والصفات العُلى) لعبد الهادي وهبي - صفة الحلم.

اليأس من رحمة الله صفة الكافرين:

في كتاب الله -عز وجل- تذكير وبيان لأهل الإيمان، أن اليأس من رحمته، والقنوط من روحه ومغفرته، هي صنعه الزائغين الأشرار، والمفسدين الكفار، قال تعالى: ﴿وَلَا تَاْيْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف:٨٧].

وقال -عز وجل- عن إبراهيم الخليل -عليه الصلاة والتسليم -: ﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ [الحجر:٥٦].

قال العلامة العثيمين (القول المفيد) (٢/ ١٠٣): «فالقنوط من رحمة الله لا يجوز، لأنه سوء ظن بالله -عز وجل- وذلك من وجهين:

الأول: أنه طعن في قدرته سبحانه، لأن من علم أن الله على كل شيء قدير لم يستبعد على قدرة الله.

الثاني: أنه طعن في رحمته سبحانه، لأن من علم أن الله رحيم لا يستبعد أن يرحمه الله -سبحانه- ولهذا كان القانط من رحمة الله ضالًا».

-[الفائدة الحادية عشرة]-

فضل الأعمال الصالحة، ودورها في خلاص العبد

إن للعمل الصالح فضل عظيم، ودور كبير في تفريج الكربات، وتخليص العبد من مأزقه وقضاء الحاجات، قال العلامة العثيمين: (القول المفيد) (٢/ ١٠٤): «وكم من إنسان وقع في كربة وظن أن لا نجاة منها، فنجاه الله -سبحانه وتعالى-: إما بعمل صالح سابق مثل ما وقع ليونس عليه السلام، قال تعالى: ﴿ فَلَوْلَا أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ۝١٤٣ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [الصافات:١٤٣-١٤٤].

أو بعمل لاحق، وذلك كدعاء رسول الله ﷺ يوم بدر وليلة الأحزاب، وكذلك أصحاب الغار» (ا.هـ).

ولقد كان للرجل التائب أعمالًا صالحة، وهي رصيده خلال سبعين سنة، ولا شك أن العمل الصالح سبب في رجوع العبد إلى الله، والتأسف على وقوعه في المعصية، ولن ينسى الله عبده الذي عمل الخير، وتقرب إليه بالطاعات، تحت سيطرة الشيطان، وإغوائه، وإن زل العبد، أو سقطت قدمه في الحرام، فإن من طبع المؤمن أنه الرجاع العواد إلى رب العباد -تبارك وتعالى-، ويتجلى كذلك هذا المعنى أخرى في رجحان الرغيف على ذنوب السبع الليال، وكيف أن العمل الصالح كان سببًا في نجاته، وفكاك أسره.

فضائل الأعمال الصالحة:

كثيرة هي النصوص التي تذكرنا بفضائل الأعمال الصالحة، ومزاياها الراجحة، وإليك بعضًا منها من كتاب ربنا -عز وجل- وسنة نبينا ﷺ.

فضائلها في القرآن الكريم:

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة:٦٢].

وأكد الله -سبحانه وتعالى- هذه الفضيلة للمؤمنين الذين يعملون الصالحات في سورة (المائدة:٦٩) فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

وأهل الإيمان والعمل الصالح هم أهل الحياة الطيبة، والسعادة الحقيقية قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل:٩٧].

ولا يتمنى المجرمون والعصاة في الآخرة شيئًا يعودون في الدنيا لعمله إلا العودة للعمل الصالح، قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة:١٢].

وقال -عز وجل- عنهم: ﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾ [فاطر:٣٧].

وقال تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ . لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ﴾ [المؤمنون:٩٩-١٠٠].

وقال تعالى: ﴿ وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾.

[المنافقون:١٠].

وأصحاب العمل الصالح هم من خير الناس عند الله تعالى، قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [فصلت:٣٣].

ووعدهم المولى -عز وجل- بمغفرة منه، وتكفير سيئاتهم فقال تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۙ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ [المائدة:٩].

وقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۙ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴾ [محمد:٢].

وفي كثير من الآيات ذكر الله -عز وجل- بشراه لهم بالجنة، والفردوس الأعلى.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴾ [الكهف:١٠٧].

وقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴾ [العنكبوت:٥٨].

وقال تعالى: ﴿ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة:١٩].

وإن الناظر في القرآن الكريم يجد النصوص الكثيرة التي تبين شرف، ومرتبة الأعمال الصالحة، وكذلك في سنة رسول الله ﷺ الشيء الكثير.

واكتفيت بنصوص القرآن الكريم، اختصارًا للمقام

* * *

فنسأل اللّه تعالى – أن يرزقنا الإيمان الصادق ، والعمل الصالح ، ويجعلنا من أهل الجنان .

-[الفائدة الثانية عشرة]-

الصدق في التوبة إلى الله -عز وجل-

من صدق الله صدقه، وهذا التائب صدق الله في توبته، وكانت توبة نصوحًا، فمات تائبًا من ذنبه، فصدقه الله فغفر له، وتاب عليه.

والمولى -عز وجل- لحبه للتوبة، وفرحه بها، أمرنا -عز وجل- في كتابه الكريم بالتوبة في غيرما آية، فقال -عز وجل-: ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ [النور:٣١].

وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّٰتٍ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ ﴾ [التحريم:٨].

وفي سورة (هود:٣): ﴿ وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٍ فَضۡلَهُۥۖ وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٍ ﴾.

قال هود -عليه الصلاة والسلام- لقومه: ﴿ وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ مُجۡرِمِينَ ﴾ [هود:٥٢].

وقال صالح -عليه الصلاة والسلام- لقومه: ﴿ فَٱسۡتَغۡفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ

﴿إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٞ مُّجِيبٞ﴾ [هود:٦١].

وقال شعيب -عليه الصلاة والسلام- لقومه: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ﴾ [هود:٩٠].

وقال نوح -عليه الصلاة والسلام-: ﴿فَقُلۡتُ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا﴾ [نوح:١٠].

والله -عز وجل- يقول: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٞ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ﴾ [طه:٨٢].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ ثُمَّ يَسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ [النساء:١١٠].

وفي الحديث: «إن الشيطان قال: وعزتك يا رب لا أبرح أغوي عبادك مادامت أرواحهم في أجسادهم، فقال الرب: وعزتي وجلالي لا أزال أستغفر لهم ما استغفروني» [رواه الحاكم][١].

وقد كان ﷺ يستغفر الله وهو من هو -عليه الصلاة والسلام- فعن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالت: «صلى رسول الله ﷺ الضحى، ثم قال: اللهم اغفر لي، وتب علي إنك أنت التواب الرحيم حتى قالها مائة مرة»[٢].

وتقول عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: «كان رسول الله ﷺ يُكثر من قول: سبحان الله

---

(١) أخرجه الحاكم (٧٦٧٢). وحسنه الألباني في صحيح الجامع: (١٦٥٠).

(٢) أخرجه البخاري في الأدب المفرد - باب سيد الاستغفار، وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد برقم: (٤٨٢).

وبحمده أستغفر الله وأتوب إليه»[1].

مواقف للصادقين في توبتهم:

إن التائبين المخلصين في رجوعهم إلى الله كثر، ومن هؤلاء ما قصه علينا النبي ﷺ من خبر الرجل الذي قتل مائة نفس.

ففي الصحيحين عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن نبي الله ﷺ قال: «كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفسًا، فسأل عن أعلم أهل الأرض، فدل على راهب، فأتاه، فقال: إنه قتل تسعة وتسعين نفسًا، فهل له من توبة؟ فقال: لا، فقتله، فكمل به مائة، ثم سأل عن أعلم أهل الأرض، فدُل على رجل عالم، فقال: إنه قتل مائة نفس فهل له من توبة؟ فقال: نعم، ومن يحول بينه وبين التوبة؟ انطلق إلى أرض كذا وكذا فإن بها أناسا يعبدون الله فاعبدا لله معهم، ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء، فانطلق حتى إذا نصف الطريق أتاه الموت، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة، وملائكة العذاب، فقالت ملائكة الرحمة: جاء تائبًا مقبلًا بقلبه إلى الله تعالى، وقالت ملائكة العذاب: إنه لم يعمل خيرًا قط، فأتاه ملك في صورة آدمي فجعلوه بينهم -أي حكمًا- فقال: قيسوا ما بين الأرضيين فإلى أيتهما كان أدنى فهو له، فقاسوا فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد، فقبضته ملائكة الرحمة»[2].

---

(١) أخرجه مسلم – كتاب الصلاة – باب ما يقال في الركوع والسجود.

(٢) أخرجه البخاري – كتاب أحاديث الأنبياء – باب ، ومسلم – كتاب التوبة – باب قبول توبة القاتل.

وفي رواية «فنأى بصدره نحوها»، وفي أخرى: «فأوحى الله تعالى إلى هذه أن تباعدي ، وإلى هذه أن تقربي».

فما أعظم الصدق في توبة هذا الرجل، والذي وهو على سكرات الموت إلا أنه ما زال ينأى بصدره، ويزحف به، حتى يصل إلى أرض التوبة، ولذلك كان الأمر من الله للأرض، وتسخيرها له، لما علم صدقه، وإخلاصه في رجوعه إليه.

ومن أخبار التائبين ما ذكره ابن قدامه في كتاب (التوابين) (ص:٢١٩): عن عبد الله بن مسلمة القعنبي، وكيف صار بعد ذلك محدثًا إمامًا روى عنه البخاري ومسلم -رحمهما الله-.

فقد كان عبدالله بن مسلمة القعنبي يشرب النبيذ، ويصحب الأحداث، فدعاهم يومًا، وقد قعد على الباب ينتظرهم، فمر شعبة على حماره، والناس خلفه يهرعون، فقال: من هذا؟ قيل: شعبة، قال: وإيش شعبة؟ قالوا: محدث. فقام إليه وعليه إزار أحمر، فقال له: حدثني، فقال له: ما أنت من أصحاب الحديث فأحدثك، فأشهر سكينه، وقال: تحدثني أو أجرحك؟ فقال له: حدثنا منصور عن ربعي عن أبي مسعود ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا لم تستحي فاصنع ما شئت»[1]. فرمى سكينه، ورجع إلى منزله، فقام إلى جميع ما كان

---

(١) أخرجه البخاري – كتاب الأدب – باب إذا لم تستح اصنع ما شئت.

عنده من الشراب فهرا قه، وقال: لأمه: الساعة أصحابي يجيئون، فأدخليهم، وقدمي الطعام إليهم، فإذا أكلوا فأخبريهم بما صنعت بالشراب حتى ينصرفوا، ومضى من وقته إلى المدينة، فلزم مالك بن أنس فأثر عنه، ثم رجع إلى البصرة، وقد مات شعبة، فما سمع منه غير هذا الحديث.

-ويا لله- ما أروع هذا الموقف، يتغير هذا التغير، وتنقلب حياته من الظلمات إلى النور، بسبب سماعه لحديث واحد من أحاديثه ﷺ أثر فيه، ونقله نقلة عظيمة إلى أن أصبح من علماء المسلمين، ومحدثيهم.

***

فنسأل الله أن يمن علينا بالتوبة الصادقة ،

وأن يزدنا من فضله .

-[الفائدة الثالثة عشرة]-

فضل إطعام الطعام ، والتصدق به

إن إطعام الرجل التائب - لذلك الرجل المسكين كان سببًا في غفران الله تعالى له ذنوبه، وفي هذا فضيلة عظيمة لمن يطعم الطعام، والأدلة على فضل إطعام الطعام كثيرة في كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ.

فالمولى -عز وجل- يقول في كتابه الكريم في وصف عباده المؤمنين: ﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴾ [الإنسان:٨]. شعارهم في هذا العمل: ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴾ [الإنسان:٩]. ويفعلون ذلك من أجل أنهم ﴿ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴾ [الإنسان:١٠]. فكان الجزاء من الله تعالى: ﴿ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴾ [الإنسان:١١]، ومن الجرائم العظام لمن استحق سقر: ﴿ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴾ [المدثر:٤٤].

ولقد نبهتنا الآيات في سورة الإنسان أن عباد الله المؤمنين ما نالوا ذلك كله إلا بإخلاصهم، وابتغائهم وجه الله تعالى.

وإلا فإن حاتمًا الطائي -أكرم العرب- ما نفعه ذلك عند الله شيئا، قال عدي بن حاتم رضي الله عنه: يا رسول الله؟ إن أبي كان يحمل الكل، ويقرئ الضيف، ويعين على نوائب الحق، فهل ينفعه ذلك عند الله؟ فقال له ﷺ: «إن أباك طلب شيئًا فأصابه»[1].

---

(١) أخرجه أحمد حديث: (١٧٩١٢)، وابن حبان حديث: (٣٣٣١)، والطيالسي: (١١١٤).

أي: طلب الذكر والثناء في الدنيا فأصاب ذلك، فهو إلى اليوم يضرب به المثل في الكرم، ولكن الأجر والمثوبة فليس له شيء.

وممن كان مشهورًا عند الجاهلين بإطعام الطعام، وإكرام الضيفان، عبدالله بن جدعان، فقد كان يقري الضيوف، وما يأتي حاج إلا ويزوده إلى أهله، في الجاهلية. تقول عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «يا رسول الله إن ابن جدعان كان يقري الضيوف، ويفك العاني، ويصل الرحم، ويحسن الجوار، فهل ينفعه ذلك؟ قال رسول الله ﷺ: لا إنه لم يقل يومًا قط، اللهم اغفر لي خطيئتي يوم الدين»[1].

وعلى المسلم وهو يسمع هذه الأخبار أن يحمد الله على نعمة التوحيد، وإخلاص العبادة لله تعالى.

وقد جاءت النصوص في سنة النبي ﷺ قال: «فكوا العاني -يعني الأسير-، وأطعموا الجائع، وعودوا المريض»[2].

قال ابن بطال: «قال أبو الزناد: في هذا الحديث الحض على المواساة، واستجلاب قلوب الناس بإطعام الطعام ، وبذل السلام، لأنه ليس شي أجلب للمحبة، وأثبت للمودة بينهما» (ا.هـ).

وإطعام المساكين، سبب في دخول الجنة، وقد كان هذا العمل من شعار الصالحين.

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده برقم: (٢٤٣٣٥)، والحاكم في مستدركه كتاب التفسير – تفسير سورة الشعراء.

(٢) أخرجه البخاري – كتاب المرضى – باب وجوب عيادة المريض.

فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قال: قال رسول الله ﷺ: «من أصبح منكم اليوم صائمًا؟ قال: أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنا، قال فمن تبع منكم اليوم جنازة؟ قال أبو بكر: أنا، قال: فمن أطعم اليوم مسكينًا؟ قال أبو بكر: أنا، قال: فمن عاد منكم اليوم مريضًا؟ قال أبو بكر: أنا، فقال رسول الله ﷺ: ما اجتمعن في امرئ إلا دخل الجنة»[1].

وقد حث النبي ﷺ أبا ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأوصاه بإطعام الجيران ففي صحيح مسلم - أن رسول الله ﷺ قال: «يا أبا ذر إذا طبخت مرقة، فأكثر ماءها، وتعاهد جيرانك»[2].

وعن عبدالله بن سلام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: «يا أيها الناس أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام»[4].

عن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال إن النبي ﷺ قال: «إن في الجنة غرفا يُرى ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها، قالوا لمن هي يا رسول الله؟ قال: لمن أطعم الطعام، وأطاب الكلام، وصلى بالليل والناس نيام»[5].

---

(١) أخرجه مسلم – كتاب الزكاة – باب من جمع الصدقة.

(٢) أخرجه مسلم – كتاب البر والصلة – باب الوصية بالجار والإحسان إليه.

(٤) أخرجه أحمد برقم: (٢٣١٤٧)، وابن ماجة – كتاب إقامة الصلاة – باب ما جاء في قيام الليل انظر: السلسلة الصحيحة رقم: (٥٦٩).

(٥) أخرجه أحمد – حديث: (٦٤٤٣). انظر صحيح الترغيب والترهيب: (٣٧٠٨).

وإطعام الطعام من خير الأعمال في الإسلام فعن عبد الله بن عمرو ابن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن رجلًا سأل النبي ﷺ: «أي الإسلام خير؟ قال: تطعم الطعام، وتقرأ السلام على من عرفت، ومن لم تعرف»[٦].

وإطعام الطعام، من مكارم الأخلاق وحميد العادات، وهو علامة الجود والسخاء، وفيه نفع للمحتاجين، وسد لجوعهم.

وقد امتدح النبي ﷺ الأشعريين من الصحابة، لاتصافهم بهذا الخلق الكريم، وتعاونهم فيما بينهم، وتراحمهم على أدناهم، فقال ﷺ في حديث أبي موسى: «إن الأشعريين إذا أرملوا في الغزو، وقل طعام عيالهم بالمدينة، جمعوا ما كان عندهم في ثوب واحد، ثم اقتسموه بينهم بالسوية، فهم مني وأنا منهم» [متفق عليه] [١].

ومعنى: أرملوا: أي فني طعامهم.

قال الإمام النووي - رحمه الله تعالى (شرح مسلم) (١٦/ ٥٨١): «وفي هذا الحديث: فضيلة الأشعريين، وفضيلة الإيثار والمواساة، وفضيلة خلط الأزواد في السفر، وفضيلة جمعها في شيء عند قلتها في الحضر ثم يقسم» (ا.هـ).

---

(٦) أخرجه البخاري - كتاب الإيمان - باب: إطعام الطعام من الإسلام، و مسلم - كتاب الإيمان - باب بيان تفاضل الإسلام.

(١) أخرجه البخاري – كتاب الشركة – باب الشركة في الطعام والتعبد والعروض، ومسلم – كتاب فضائل الصحابة – باب من فضائل الأشعريين.

والإطعام هو داخل في باب الإنفاق والصدقة، والتي تكاثرت النصوص من الكتاب والسنة في فضلها، وبيان أن الله يخلف على صاحبها، وهو ما بقى للإنسان لحياته الأخروية.

❊ ❊ ❊

فاللهم قنا شح نفوسنا ، واخلف علينا بخير ،

واجعلنا في جنات الفردوس في عليين .

-[الفائدة الرابعة عشرة]-

حسن الظن بالله -سبحانه وتعالى-

إن في إخبار الصحابي الفاضل أبي موسى الأشعري رضي الله عنه لأولاده بقصة صاحب الرغيف، عند احتضار الموت، وما في هذه القصة من عظيم فضل الله على الإنسان، وتقبله بعد توبته، رغم ذنبه ومعصيته، كل هذا ليرجو الإنسان ربه، ويحسن الظن به، فإنه ينبغي للإنسان أن يحسن الظن بربه، لاسيما في مثل هذا الموضع، عند حضور السكرات.

وفي القرآن الكريم يخبر -عز وجل- عن مؤمن آل فرعون، وحسن ظنه بالله، ورجاءه له. فقال: ﴿ وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلْعِبَادِ . فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ﴾ [غافر:٤٤-٤٥].

وفي الحديث القدسي: «أنا عند ظن عبدي بي»(١).

قال ابن الجوزي: أي في الرجاء وأمل العفو.

وعن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما أنه سمع النبي ﷺ قبل موته بثلاثة أيام يقول: «لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله -عز وجل-»(٢).

قال العلماء: «معنى إحسان الظن بالله: أن يظن أنه يرحمه، ويعفو

---

(١) أخرجه البخاري - كتاب التوحيد - باب قول الله تعالى - ويحذركم الله نفسه - ومسلم - كتاب التوبة - باب في الحض على التوبة.

(٢) أخرجه مسلم - كتاب الجنة وصفها ونعيمها - باب الأمر بحسن الظن بالله عند الموت.

عنه، وفي حالة الصحة يكون خائفًا راجيًا، وإذا دنت أمارات الموت غلب عليه الرجاء، أو محضة لأن مقصود الخوف الانكفاف عن المعاصي، والقبائح، والحرص على إكثار الطاعة، وصالح العمل، وقد تعذر ذلك، أو معظمة في هذه الحال، فاستحب إحسان الظن المتضمن للافتقار إلى الله تعالى ، والإذعان له، قال القرطبي: فهو أن يموتوا على غير حالة حسن الظن، وذلك ليس بمقدورهم ، بل المراد الأمر بتحسين الظن ليوافي في الموت وهو عليه» (ا.هـ)[1].

ما جاء من النصوص في الرجاء وحسن الظن بالله:

قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [لأعراف: ١٥٦].

قال البيضاوي: وهذا في الدنيا، وأما في الآخرة فقال تعالى: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف:١٥٦].

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قدم رسول الله ﷺ بسبي فإذا امرأة من السبي تسعى إذ وجدت صبيًا في السبي أخذته فألزقته ببطنها فأرضعته، فقال رسول الله ﷺ: «أترون هذه المرأة طارحة ولدها في النار، قلنا لا والله، قال: لله ارحم بعباده من هذه بولدها»[2].

(١) بنصه من (البحر الرائق في الزهد والرقائق) للدكتور أحمد فريد(ص١٩٧)، وغالب ما ذكر هنا ملخص من هذا الكتاب، وكتاب الحافظ ابن أبي الدنيا: (حسن الظن بالله).

(٢) أخرجه البخاري – كتاب الأدب – باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته، ومسلم – كتاب التوبة – باب في سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لما خلق الله الخلق كتب في كتاب فهو عنده فوق العرش أن رحمتي تغلب غضبي»[1]، «غلبت غضبي»، وفي رواية «سبقت غضبي».

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «جعل الله الرحمة مائة جزء، فأمسك عنده تسعة وتسعين، وأنزل في الأرض جزءًا واحدًا، فمن ذلك الجزء يتراحم الخلائق حتى ترفع الدابة حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه»[2].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «والذي نفسي بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم، وجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله تعالى فيغفر لهم»[3].

وعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: «كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في قبة نحوًا من أربعين، فقال: أترضون أن تكونوا ربع أهل الجنة؟ قلنا: نعم، قال: أترضون أن تكونوا ثلث أهل الجنة؟ قلنا: نعم، قال: والذي نفسي بيده إني لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة، وذلك أن الجنة لا يدخلها إلا نفس مسلمة، وما أنتم في أهل الشرك إلا كالشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود، أو كالشعرة السوداء في جلد الثور الأبيض»[4].

---

(١) أخرجه البخاري – كتابا بدء الخلق باب ما جاء في قول الله تعالى: وهو الذي يبدأ، ومسلم كتاب التوبة – باب في سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه.

(٢) أخرجه البخاري – كتاب الأدب – باب جعل الله الرحمة مائة جزء، ومسلم كتاب التوبة – باب في سعة رحمة الله.

(٣) رواه مسلم – كتاب التوبة – باب سقوط الذنوب بالاستغفار.

(٤) أخرجه البخاري – كتاب الرقاق – باب كيف الحشر ، ومسلم كتاب الإيمان – باب كون هذه الأمة نصف أهل الجنة.

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا كان يوم القيامة دفع الله إلى كل مسلم يهوديًا، أو نصرانيًا فيقول: هذا فكاك من النار»[1].

قال عمر بن عبدالعزيز والشافعي: هذا الحديث أرجى حديث للمسلمين، قال النووي: وهو كما قالا لما فيه من التصريح بفداء كل مسلم، وتعميم الفداء ولله الحمد.

قال ابن القيم -رحمه الله- في (الجواب الكافي) (ص: ٣١-٣٢): «ولا ريب أن حسن الظن إنما يكون مع الإحسان، فإن المحسن حسن الظن بربه أن يجازيه على إحسانه، ولا يخلف وعده، وأنه يقبل توبته، وأما المسيء المصر على الكبائر، والظلم، والمخالفات، فإن وحشة المعاصي، والظلم والحرام، تمنعه من حسن الظن بربه، وهذا موجود في المشاهد فإن العبد الآبق المسيء الخارج عن طاعة سيده لا يحسن الظن به، ولا يجامع وحشة الإساءة إحسان الظن أبدًا، فان المسيء مستوحش بقدر إساءته، وأحسن الناس ظنا بربه أطوعهم له، كما قال الحسن البصري: إن المؤمن أحسن الظن بربه فأحسن العمل، وإن الفاجر أساء الظن بربه فأساء العمل.

فكيف يكون محسن الظن بربه من هو شارد عنه حالُ مرتحل في مساخطه، وما يغضبه، متعرض للعنته، قد هان حقه وأمره عليه فأضاعه،

---

(١) أخرجه مسلم – كتاب التوبة – باب قبول توبة القاتل وإن كثر قتله.

وهان نهيه عليه فارتكبه، وأصر عليه؟.

وكيف يحسن الظن به من بارزه بالمحاربة، وعادى أولياءه، ووالى أعداءه، وجحد صفات كما له، وأساء الظن بما وصف به نفسه ووصفته به رسله، وظن بجهله أن ظاهر ذلك ضلال وكفر؟. وكيف يكون حسن الظن بربه من يظن أنه لا يتكلم، ولا يأمر، ولا ينهى، ولا يرضى، ولا يغضب، وقد قال الله في حق من شك في تعلق سمعه ببعض الجزئيات وهو السر من القول: ﴿وَذَٰلِكُمۡ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمۡ أَرۡدَىٰكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [فصلت:٢٣].

فهؤلاء لما ظنوا أن الله سبحانه لا يعلم كثيرا مما يعملون كان هذا إساءة لظنهم بربهم، فأرداهم ذلك الظن، وهذا شأن كل من جحد صفات كماله ونعوت جلاله، ووصفه بما لا يليق به، فإذا ظن هذا أنه يدخله الجنة كان هذا غرورًا، وخداعًا من نفسه، وتسويلًا من الشيطان، لا إحسان ظن بربه».

وقال (ص:٥٣-٥٤): «فصل الفرق بين حسن الظن والغرور وقد تبين الفرق بين حسن الظن والغرور، وأن حسن الظن إن حمل على العمل، وحث عليه وساق إليه فهو صحيح، وإن دعا إلى البطالة، والانهماك في المعاصي فهو غرور.

وحسن الظن هو الرجاء فمن كان رجاؤه هاديًا له إلى الطاعة،

زاجرًا له عن المعصية، فهو رجاء صحيح، ومن كانت بطالته رجاء، ورجاؤه بطالة وتفريطًا، فهو المغرور.

ولو أن رجلا كانت له أرض يؤمل أن يعود عليه من مغلها ما ينفعه فأهملها، ولم يبذرها، ولم يحرثها، وأحسن ظنه بأنه يأتي من مغلها ما يأتي من غير حرث، ولا بذر ولا سقي، ولا تعاهد الأرض، لعده الناس من أسفه السفهاء، وكذلك لو حسن ظنه، وقوى رجاءه بأنه يجيئه ولد من غير جماع، أو يصير أعلم أهل زمانه من غير طلب للعلم، وحرص تام عليه، وأمثال ذلك.

فكذلك من حسن ظنه، وقوى رجاؤه في الفوز بالدرجات العلى، والنعيم المقيم من غير تقرب إلى الله تعالى بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه، وبالله التوفيق.

وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:٢١٨]. فتأمل كيف جعل رجاءهم إتيانهم بهذه الطاعات؟

وقال المغترون: إن المفرطين المضيعين لحقوق الله المعطلين لأوامره، الباغين على عباده، المتجرئين على محارمه، أولئك يرجون رحمة الله.

وسر المسألة: أن الرجاء، وحسن الظن إنما يكون مع الإتيان بالأسباب التي اقتضتها حكمة الله في شرعه، وقدره، وثوابه، وكرامته، فيأتي العبد بها ثم يحسن ظنه بربه، ويرجوه أن لايكله إليها، وأن يجعلها موصلة إلى ما ينفعه، ويضرب عما يعارضها، ويبطل أثرها» (ا.هـ).

وبهذا نصل إلى ختام هذا السفر، والذي نسأل الله أن يبارك فيه، وينفع به كاتبه، وقارئه، وناشره.

❊ ❊ ❊

وصلى الله وسلم على نبينا محمد ،

وعلى آله ، وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا .

المراجـــــع

١) الأسماء الحسنى والصفات العلى لعبد الهادي بن حسن وهبي.

٢) إعانة المستفيد شرح كتاب التوحيد للعلامة صالح الفوزان.

٣) البحر الرائق في الزهد والرقائق للدكتور أحمد فريد.

٤) تفسير القرآن العظيم للحافظ ابن كثير.

٥) الجامع لأحكام القرآن الكريم للقرطبي.

٦) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي لابن القيم الجوزية.

٧) الجـواهر السـليمانية شـرح المنظومـة البيقونيـة للشـيخ المحـدث أبـي الحسن السليماني.

٨) حسن الظن بالله للحافظ ابن أبي الدنيا.

٩) سنن الترمذي فريق دار الأفكار الدولية.

١٠) سنن أبي داود اعتنى به مشهوربن حسن بن سلمان.

١١) سنن ابن ماجة اعتنى به مشهوربن حسن بن سلمان.

١٢) سنن النسائي اعتنى به مشهور بن حسن بن سلمان.

١٣) سير أعلام النبلاء للذهبي.

١٤) السلسلة الصحيحة للعلامة الألباني.

١٥) شرح صحيح مسلم للإمام النووي.

١٦) شرح النزهة للعلامة للعثيمين.

١٧) صحيح الإمام البخاري.

١٨) صحيح الإمام مسلم.

١٩) صحيح الأدب المفرد للعلامة الألباني.

٢٠) عقود اللؤلؤ والمرجان في وظائف شهر رمضان، للشيخ إبراهيم آل عبدالمحسن.

٢١) فتح الباري شرح صحيح البخاري للحافظ ابن حجر.

٢٢) القول المفيد شرح كتاب التوحيد للعلامة العثيمين.

٢٣) كتاب التوابين لابن قدامة.

٢٤) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن محمد فؤاد عبد الباقي.

٢٥) المنار المنيف بمقاصد قصة صاحب الرغيف للشيخ سليم الهلالي[١].

٢٦) نزهة النظر للحافظ ابن حجر.

---

(١) (ذُكر فيها عدد من النقاط المتعلقة بالأثر باختصار في ورقة واحدة، كما وجدتها في منتديات سبيل السلفية، فذكرتها، وأضفت عليها، وتوسعت في شرحها نسأل الله الإخلاص).

فهـرس المحتـويات